

الدرس الأول

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهِيَ كِتَابٌ مُعْلَمٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِمُ الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلْئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلْئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

(الحجر: ١-١٥).

ذوات (الر):

وهي سورة تبدأ بالحروف المقطعة ككثير من سور القرآن ، وهي من ذوات ﴿الر﴾ ، وقد افتتحت بها ست سور من القرآن الكريم ، وهي : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، وختمت بسورة الحجر .

وتميّزت كلها بأنها تتحدّث عن قصص الأنبياء ، وسُمّيت بأسمائهم ، إلا سورة الرعد فلم تتحدّث عن أحدٍ من الأنبياء ، كما تميّزت بشيءٍ آخر أنها بدأت بـ ﴿المر﴾ .

وهذه السورة بدأت بـ ﴿الر﴾ ، وهي سورة الحجر .

والمقصود بالحجر : (حجر ثمود) ؛ لأنها تتحدث عن نبي الله صالح وقصته المذكورة في أواخر السورة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الحجر: ٨٠).

هذه السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

نقول في اللغة العربية : (تلك) اسم إشارة إلى المؤنث البعيد ، و(ذلك) اسم إشارة للمذكر البعيد ، كما في سورة البقرة : ﴿ اَلَمْ ؕ ذٰلِكَ اَلْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ ﴾ (البقرة: ٢،١) ، (ذلك) إشارة إلى القرآن ، الكتاب البعيد في المنزلة العالية ، علواً يُعتبر بعيد المرام ، رفيع المقام ، ﴿ ذٰلِكَ اَلْكِتٰبُ ﴾ (البقرة: ٢) ، الذي يُشار إليه بالبنان ، وهنا إشارة إلى الآيات ، ولذلك جاءت بهذه الصيغة : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أي : آيات هذا القرآن المعجز العجيب الرائع .

الكتاب المسطور والقرآن المتلو :

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

كما ذكر في سورة البقرة : ﴿ اَلَمْ ؕ ذٰلِكَ اَلْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴾ (البقرة: ٢،١) .

وفي سورة يونس : ﴿ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيْمِ ﴾ (يونس: ١).

وفي سورة يوسف : ﴿ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِيْنِ ﴾ (يوسف: ١).

وفي سورة الرعد : ﴿ اَلَمْ ؕ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيْ اُنزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ اَلْحَقُّ ﴾ (الرعد: ١) .

وفي سورة الشعراء : ﴿ طَسَمَ ؕ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِيْنِ ﴾ (الشعراء: ٢،١).

وفي سورة القصص : ﴿ طَسَمَ ؕ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِيْنِ ﴾ (القصص: ٢،١).

وفي سورة لقمان : ﴿ اَلَمْ ؕ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيْمِ ﴾ (لقمان: ٢،١) ، وكلُّ

هذه أوْصاف للقرآن ، فهو كتابٌ مبين ، وكتابٌ حكيم ، وكتابٌ لا ريب فيه .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾^(١)، إذا ذكر الكتاب فلا كتاب غيره ، هو الكتابُ الكامل الذي اجتمعت فيه كلُّ الخصائص ، وكلُّ المميّزات في كلِّ الكتب السماويّة ، فإذا ذكر هو لم يذكر غيره .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أهدى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السؤالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا^(٢)

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣)، هذا الكتاب هو القرآن المبين .

عرّف الكتاب ونكّر القرآن ، والتنكير هنا - كما يقول النحويون - للتفخيم والتعظيم ، أي : قرآنٌ مُبِينٌ يتميّز بالإبانة : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤) ، فهو كتابٌ مُبِينٌ ، أي : معناه بينٌ في نفسه ، مُبِينٌ للحقائق ، كاشفٌ للأباطيل .

الإبانة من خصائص القرآن الكريم :

من خصائص القرآن : الإبانة ، فهو كتابٌ مُبِينٌ ، ومن إبانته أنه يفهمه الخاصُّ والعامُّ ، كلُّ منهم يأخذ منه على قَدْر سَعَة واديه ، حتى الطفل الذي يقرأ القرآن الكريم .

قرأتُ القرآنَ الكريمَ وأنا طفل ، فكنْتُ أفهمُ منه ، أقرأ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى: ٣) ، فأعرفُ معناها الإجمالي ، ولكن قد لا أعرفُ ماذا تعني

(١) أطلق على ما أنزل الله عز وجل على نبيه (الكتاب) للدلالة على وجوب تدوينه ، بالكتابة ، و جعله بين الناس كتاباً محرراً يرجعون إليه ، محمياً من التحريف والتغيير .
و(ال) في لفظ (الكتاب) للكمال .

(٢) من شعر : البوصيري .

(٣) أي : جليّ واضح من فعل (أبان) اللازم . ومُبينٌ للعلوم والحقائق والتكاليف من فعل (أبان) المتعدي . يقال : أبان الشيء ، أي : وضع وظهر فهو مبين ، ويقال : أبان نور المصباح جدران الغرفة ، أي : أظهرها وأوضحها .

﴿ قَلِيًّا ﴾؟ ومعناها إجمالاً : أن ربنا ما تركك ولا هجرَكَ ، ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ ﴿١﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٢﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٣﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٤﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٥﴾ (الضحى: ٤-٨)، كلمة : ﴿ عَائِلًا ﴾ لا أفهم ما معناها ، ولكن أفهمها بالسياق : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ، أي : فقيراً فأغناكَ . وهكذا ، فهو قرآن مبين .

القرآن والكتاب شيء واحد :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ ، بعضهم يريد أن يجعل الكتاب شيئاً والقرآن شيئاً آخر ، وهذا خللٌ وتحريفٌ وتزييفٌ ؛ لأنه شيءٌ واحد ، يُسمى كتاباً ؛ لأنَّ الله جعله كتاباً ، وأمر الرسول ﷺ بكتابه ، يجب أن يُكتب ، ولذلك كان هناك كتابٌ للوحي ، يكتبون كلَّ ما ينزل من القرآن الكريم ، وكان الكتابُ قليلين في ذلك الوقت .

(كان عثمان بن عفان وعلي يكتبان الوحي لرسول الله ﷺ ، فإن غلب كتب أبي ابن كعب وزيد بن ثابت .

وكان أبي بن كعب ممن كتب لرسول الله ﷺ الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضاً ، وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي ، وكان أبي إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، وكان أبي وزيد يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ . ونحوه في العقد الفريد لابن عبد ربه ، قال القضاعي : فإن لم يحضر أحد منهم كتب الوحي من حضر من الكتاب ، وهم : معاوية وجابر بن سعيد بن العاصي وإبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع)^(١) .

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية للعلامة عبد الحي الكتاني (١/١١٤، ١١٥)، نشر حسن جعنا ، بيروت .

وكانت أدوات الكتابة في غاية الصعوبة والعُسْر ، يكتبون على العظام ، و«العسب والرقاع واللخاف»^(١) . والعُسْب : جمع عسيب ، وهو سعف النخل . واللِّخَاف جمع لَخْفَة ، وهي حجارة بيض رقاق . يكتبون على ما يتيسر من الأشياء . فهو كتاب .

وهو قرآن ؛ لأنه يُقرأ ، اجتمع فيه أنه يُقرأ ويُتلى بالألسنة ، ويتناقله الناس مشافهةً ، ومع هذا يكتب كتابةً ليكون هذا أوثق ، وفي هذه السورة قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وفي سورة النمل يقول الله تعالى : ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ١) ، نفس الشيء الكتاب هو القرآن ، والقرآن هو الكتاب ، ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ (النمل: ١، ٢) .

تذكير الكفار بمصيرهم في الآخرة :

﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾

هذا الكتاب الذي ختمت السورة السابقة - سورة إبراهيم - بالإشارة إليه ، آخر آية فسرناها في سورة إبراهيم قول الله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) ، هذا الكتاب جاء يُنذر ، ﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ ﴾ ، جاء نذيراً للكافرين ، جاء يُذكِّرهم بمصايرهم ، يُذكِّرهم بعاقبة أمرهم ، يُذكِّرهم بآخرتهم ، وأنه سيأتي يومٌ يندمون فيه غاية الندم ، ويتحسرون فيه غاية التحسُّر على موقفهم من هذا الدين العظيم ، على موقفهم من الإسلام ، سيأتي يومٌ يودُّون لو كانوا مسلمين ، ولكن هذا سيكون بعد فوات الأوان ، يندمون حيث لا ينفع الندم ، ويتحسرون حيث لا يُجدي التحسُّر ، لأنَّ الله

(١) وفي الحديث عن زيد بن ثابت : فتتبع القرآن أجمعه من العسب والرقاع واللخاف وصدور الرجال . رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٦) .

سبحانه وتعالى أعطاهم مهلة : ﴿ أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ
الْنَذِيرُ ﴾ (فاطر: ٣٧) ، لم يستفيدوا من هذا العمر المديد ، ولم يستجيبوا للنذير .

متى يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ؟

قد قرأنا في سورة إبراهيم : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۗ أَوْلَمْ نَكُونُوا
أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٤) ، حينما يلاقون ما وعدهم الله
به من العذاب ، حين يدخلون النار جزاء ما كفروا ، وجزاء ما كسبت أيديهم ،
وما قدّمت أيديهم في الدنيا ، حينما يلقون هذا العذاب الأليم في ذلك الوقت ، يودُّ
الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

تَحَسَّرَ أَهْلُ النَّارِ وَتَمَنَّيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ :

جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه - فيما رواه الحاكم وصحَّحه
ووافقه الذهبي - : « إذا اجتمع أهل النار في النار ، ومعهم من أهل القبلة مَنْ شاء
الله ، قالوا : ما أغنى عنكم إسلامكم ، وقد صيرتُمْ معنا في النار؟
قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها .

فسمع الله ما قالوا ، قال : فَأَمْرٌ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا .

فيقول الكفار : يا ليتنا كنّا مسلمين ، فنخرج كما أخرجوا .

قال : وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ الرَّءِىَ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا
يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر: ١) (١) .

كما صحّت بذلك الأحاديث : أنّ أهل التوحيد جميعاً يخرجون من النار ، ففي
الحديث : « فيخرج من النار مَنْ قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢/٢٤٢) وصحح إسناده ووافقه الذهبي .

ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار مَنْ قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّةً ، ثم يخرج من النار مَنْ قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّةً^(١) . ولا يبقى فيها إلا مَنْ كفر كُفْرًا صريحًا ، وليس في قلبه شيءٌ من الإيمان ، هنا يؤدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

معنى (رُبَمَا) و(وَدَّ) :

﴿ رُبَّمَا ﴾ هذه تخفيف (رُبَّ) ، هي لغة من اللغات^(٢) ، فالعرب قالوا : (رُبَّ) مشددة ، وقالوا : (رُبَّ) بدون تشديد ، ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ﴿ رُبَّمَا ﴾ تأتي للتقليل ، وتأتي للتكثير أحيانًا ، يعني في أحيان ، يشغلهم العذاب حتى عن هذا التَّمَنِّي ، ولكن في بعض الأحيان يتذكرون ويقولون : يا ليتنا كُنَّا مسلمين .

الأصل في (رُبَّ) أنها تدخل على الأسماء ، ولكن إذا دخلت عليها (ما) كفتها عن العمل ، وجاز أن تدخل على الفعل ، ويكون ماضيا ، أو منزلاً منزلته في تحقيق وقوعه : ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر: ٢) ، كما قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِقَائِتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٧) ، يا ليتنا نُردُّ إلى الدنيا مرةً أخرى ، فنُصدقَ بآياتِ الله ، ونكونَ من المؤمنين بالقرآن وبمحمد ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا بُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام: ٢٨) ، ستغلبهم طبيعتهم التي ترى الحقَّ أمامها وتُعرض عنه وتُكذِّبُ به ، على الكفر .

مادة (وَدَّ) لها معنيان : معنى الحب ، ومعنى التَّمَنِّي ، تقول : (فلان يودُّ فلانًا) أي : يُحبُّه .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ، ومسلم في الإيمان (١٩٣) ، كما رواه أحمد (١٢١٥٣) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٣) ، عن أنس بن مالك .
(٢) (رُبَمَا) قرئ بالتخفيف والتشديد ، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم : (رُبَمَا) بتخفيف الباء ، والباقون : (رُبَمَا) بتشديد الباء المفتوحة ، وهما لغتان .

ونقول : (يودُ الشيء) يعني يتمناه ، والودادة هنا بمعنى التمني ، وخصوصاً جاءت بعدها ﴿لَوْ﴾ ، التي تفيد التمني ، لأنَّ (لو) تأتي للشرط أحياناً ، وتأتي للتمني أحياناً ، فهم يتمنون لو كانوا مسلمين ، لو استجابوا لدعوة محمد ﷺ ، لو كانوا آمنوا بالقرآن ، لو دخلوا فيما دخل فيه بلال وعمار وغيرهما ، من الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستهزئون بهم .

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ، أي : لو استسلموا في الدنيا لأمر الله ، وآمنوا به وبرسوله .

أكل الكفار وتمتعهم في شهواتهم ولذائذهم :

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

اتركهم - يا محمد - في دنياهم التي استعبدتهم ، والتي صرفتهم عن الإيمان ، وصدتهم عن سبيل الله ، دعهم مع الشهوات واللذائذ ، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾^(١) التمتع هو التلذذ بالحياة والتنعُّم بما فيها من أعراض ، وما فيها من متاع .

سمَّاه القرآن (متاع الغرور) ، فقال : ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) ، (الحديد: ٢٠) .

ووصفه بالقلَّة فقال : ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (النساء: ٧٧)^(٢) ، وقال : ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨) .

(١) وهو أمر وعيد لهم وتهديد ؛ أي : ليسوا ممن يرعوي عما هم فيه من الكفر والتكذيب ، ولا ممن تنفعه النصيحة والتذكير .

(٢) المتاع : كل شيء ينتفع به والفناء يأتي عليه في الدنيا .

وقال بعد أن ذكر أصناف المحبوبات إلى الإنسان ، من الشهوات والنساء والبنين والأموال والخيول والأنعام والحرث : ﴿ ذَلِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (آل عمران: ١٤) .

وإنما هو ﴿ وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة: ٣٦) .
﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ التمتع إذا ذكر في القرآن غالباً ما يذكر بالذم ، فقد قرأنا في سورة إبراهيم : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٣٠) .
وفي سورة الزمر : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (الزمر: ٨) .
وفي سورة المرسلات : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴾ (المرسلات: ٤٦) ، هكذا التمتع شأن الكفار الذين تشغلهم المتعة ، وتشغلهم شهوات الدنيا ، يشغلهم إشباع الغرائز ، نسوا عقولهم ، ونسوا ضمائرهم وقلوبهم ، ونسوا ربهم ، ونسوا آخرتهم ، وشغلوا بهذا المتاع الأدنى .

وعيدٌ شديدٌ من الله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ ، كما جاء في القرآن في آيات أخرى : ﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٤) ، ﴿ فَذَرَهُمْ تَخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٣) ، ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (الطور: ٤٥) ، وكل هذا وعيدٌ .

﴿ ذَرَهُمْ ﴾ ، هذا وعيدٌ شديد من الله سبحانه وتعالى ، إنه لا يبالي بهم ، اتركهم سيلاقون مصيرهم حتماً : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا ﴾ ، كما قال تعالى عن أهل الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١٢) .
إذا كانت المسألة مسألة أكل وتمتع ، فالأنعام تأكل كما يأكلون أو أكثر مما يأكلون ؛ لأن بطون الأنعام أكبر من بطون بني آدم ، بطن البقر أو الجاموس أو الجمل أكبر من بطن الإنسان ، ماذا يأكل الإنسان؟! البهائم والأنعام تأكل وتمتع بأكلها ؛ لأنها لا تفكر في شيءٍ آخر : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١٢) .

الأمل بين الذم والمدح :

﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ ، أي : يشغلهم الأمل^(١) . والأمل يعني الرجاء في الحياة ، والأمل في ذاته ليس مذموماً ، بل هو ضرورة من ضرورات الحياة ، كما قال الشاعر :

أَعْلَلَ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقَبَهَا ما أضيَّقَ العيشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ^(٢)

لولا أمل الإنسان في النجاح : أمل الطالب في التفوق في آخر العام ، وأمل الغارس أن يجد في النهاية ثمراً لغرسه ، أمل الزارع أن يجد حصاد زرعه ، هذا الأمل هو ما يدفع عَجَلَةَ الحياة إلى الأمام ، ولذلك قال أحد الحكماء : لولا الأمل ما غرس غارسٌ غرساً ، ولا زَرَعَ زارعٌ شجراً ، ولا بنى بانٍ بنياناً .

الأمل هو الذي دفع العلماء إلى التقدم بالعلم ، حتى رأينا الثورات العلمية الكبرى ، فأمل العلماء هو الذي دفعهم إلى التفكير ، وإلى الدراسة ، وإلى متابعة الأمر ، حتى وصلوا إلى هذه المخترعات والمكتشفات الهائلة ، والقوانين والسنن الكونية والاجتماعية .

طول الأمل مذموم :

فالأمل مطلوب ، ولكن طول الأمل هو المذموم ، وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ ﴾ ، الأمل المُلْهِم هو الأمل الطويل ، الذي يجعل صاحبه وكأنه مُخَلَّدٌ في الدنيا ، كأنه لا يموت ، كأنَّ الإنسان خُلِقَ ليخلد ، وهو يرى مَنْ حوله يسقطون واحداً بعد الآخر - الأقارب والجيران والزملاء والأصدقاء والأحباب - يختطفهم الموت مِنْ حوله ، ولكنه ينسى هذا ويقول : في العمر مُتَّسع ، وفي الزمن بقية .

(١) أي : يستهلك أوقاتهم وطاقاتهم ، والمراد بالأمل هنا : الأمل الذي ليس له واقع مطموح فيه ، بل هو أوهام وتصورات ذهنية ضائعات .

(٢) من شعر للطغرائي .

ابن العشرين أو ابن الثلاثين يقول : سيصلح حالي وأتوب عند الأربعين ، وابن الأربعين أيضاً يقول : عندما أبلغ الستين ، وابن الستين يقول : عندما أبلغ الثمانين . وهكذا .

هذا هو طول الأمل ، الذي يقول فيه الحسن البصري رحمه الله : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل^(١) ، يقول الإمام القرطبي : (وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يُكسل عن العمل ، ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتقاعد ، ويُخلد إلى الأرض ، ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان ، فلا يحتاج إلى بيان ، ولا يطلب صاحبه ببرهان .

كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويحيل على المبادرة ، ويحث على المسابقة)

ويقول : (وطول الأمل داءٌ عضال ، ومرض مُزْمِن ، ومتى تمكّن من القلب فسد مزاجه ، واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ، ولا نجح فيه دواء ، بل أعيأ الأطباء ، ويئس من برئه الحكماء والعلماء .

وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحب لها والإعراض عن الآخرة)^(٢) .

وجاء في الحديث : « يهرم ابن آدم وتشبُّ منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر »^(٣) .

طول الأمل هذا هو الذي يجعل الإنسان ينسى الموت ، ينسى الآخرة ، ينسى أن كلَّ حيٍّ سيموت ، وكلَّ ميتٍ سيبعث ، وكلَّ مبعوثٍ سيحاسب ، وكلَّ محاسبٍ سيدخل إما جنةً وإما ناراً .

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب في الزهد (١٠٧٨٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٢/١٠ ، ٣) بتصرف .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٢١) ، ومسلم في الزكاة (١٠٤٧) ، عن أنس ابن مالك .

ولو أننا إذا مثأثر كنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا فسأل بعدها عن كل شي^(١)

نسيان مصاير المكذبين :

﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ ، طول الأمل هو الذي أنساهم مصاير المكذبين والعصاة من قبلهم ، الأمم التي كفرت بالله وكذبت رسله ماذا أصابهم؟ هم يمرؤون عليهم ، يمرؤون على قري لوط ، ويمرؤون على حجر ثمود ، ومدائن صالح ، ويروون آثار الظالمين ، ومع هذا لا يعتبرون .

﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ ، كلمة : ﴿ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ ، هذا تحذير وإنذار ووعد . سوف يعلمون إذا جاء أجلهم ، حينما تحق عليهم كلمة العذاب ، سوف يعلمون ماذا ينتظرهم ، وماذا يدخر الله لهم من عقوبة في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ ، وبال صنيعهم إذا عاينوا جزاءه ، هذا وعيد الله تعالى لهؤلاء .

دعوى القرطبي بنسخ هذه الآية بآية السيف :

ومن أعجب ما قرأت حول هذه الآية ، ما قاله الإمام القرطبي في تفسيره قال :
(هذه الآية منسوخة بالسيف)^(٢) .

يا عجباً ما الذي يعارض آية السيف في هذه الآية؟! وهذه الآية تكرر معناها :
﴿ قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَّهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١) ، ﴿ فَذَرَّهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٤) ، ﴿ فَذَرَّهُمْ تَخَوُّضًا وَيَلْعَبُوا ﴾ (الزخرف: ٨٣) ، (المعارج: ٤٢) ،

(١) من شعر ينسب إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (٢/١٠) .

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (الطور: ٤٥) ، أي شيء يعارض آية السيف حتى تنسخ آية السيف هذه الآية وما في معناها ، ولكن وكَلْعُ هَوْلَاءِ الْمَفْسَّرِينَ بِقِصَّةِ النَّسْخِ ، والتوسُّعُ فيها ، والمبالغة في دعاوى النَّسْخِ ، جعل إماماً كبيراً مثل الإمام القرطبي المفسِّر العظيم يقول هذا : (هذه الآية منسوخة بالسيف) . يعني أُلغيت هذه الآية وما عاد لها فائدة ، لأنَّ آية السيف نسختها ؟ ! ألغيت مفهومها ، هذه الآية ملغاة !!

هذا الكلام لا يقبل ، لأنَّ الله أنزل كتابه ليعمل به ، وليُحَكَمَ به : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥) ، ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩) .

ولذلك أكَّد المحقِّقون من العلماء أن النسخ لا يكون إلا بأمر محقق .

قال ابن حجر : (النسخ لا يصار إليه بالاحتمال)^(١) .

وقال ابن حزم : (لا ننكر نسخ الأمر كلُّه بدليل يقوم على ذلك ، وإنما ننكر دعوى النسخ بلا دليل)^(٢) ، وقال في المحلى : (ولا يصح دعوى النسخ إلا بنصٍّ مسند إلى رسول الله ﷺ)^(٣) .

لا يجوز ادعاء نسخ الآية إلا بيقين ، لأنَّ ربنا أنزلها في كتابه ، فتقول : هذه الآية ملغاة وبطل مفعولها . لا بدَّ أن يكون عندك يقين عندما تدعي ذلك ، وإلا فقد افترت على كتاب الله ، وافتات على هذا القرآن العظيم ، وليس معنا يقين ، ولا شبه يقين ، ولا ظنَّ بأنَّ هذه الآية نُسخت ، لأنَّ معناها بيِّنٌ ، وعيد للكفار

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٤٣/١٠) ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٢) الإحكام لابن حزم (٣٥٩/٣) ، طبعة دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ .

(٣) المحلى لابن حزم (٥٢٩/٧) ، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

المُكذِّبِينَ ، الَّذِينَ اغْتَرَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَدَنِيَاهُمْ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الرِّسَالَةِ ، وَعِيدَ هَؤُلَاءِ : ﴿ ذَرَهُمْ يَا كُلُّوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ ﴾ ، أَيُّ شَيْءٍ نُسَخَ فِي هَذَا؟ هَذَا أَمْرٌ بَاقٍ وَمُسْتَمِرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

﴿ ذَرَهُمْ يَا كُلُّوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾ ، هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، بَاقِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ ، وَالْعَمَلُ بِهَا مَطْلُوبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . هِيَ وَعِيدٌ لِلْكَافِرِينَ ، وَفِيهَا تَخْوِيفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

الْخِلَافُ فِي الْآيَةِ النَّاسِخَةِ الْمُسَمَّاةِ بِآيَةِ السَّيْفِ :

وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ اخْتَلَفَ فِي الْآيَةِ النَّاسِخَةِ الَّتِي سَمَّوْهَا آيَةَ السَّيْفِ ، أَيُّ آيَةٍ هِيَ ؟ اخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى أَقْوَالٍ : وَأَكْثَرُ الْأَقْوَالِ وَأَصْحَبُهَا أَنَّهَا آيَةُ : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٥) ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ تَعَدَّوْا الْحُدُودَ ، وَطَغَوْا ، وَآذَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَنَقَضُوا الْعَهْدَ ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْبِرَاءَةِ : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة: ١) ، ثُمَّ أَمَهَلْتَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ - الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ - فَاقْتُلُوا الْمَشْرِكِينَ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ ، هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْآيَةُ .

دَعَاوَى النَّسْخِ عِنْدَ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ :

وَلَكِنْ عَيْبٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ ، أَنَّ كُلَّ آيَةٍ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ يُشَمُّ مِنْهَا اللَّيْنُ أَوْ الرَّفَقُ أَوْ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ أَوْ الْحِلْمِ أَوْ الدَّعْوَةُ يَقُولُونَ : نَسَخْتَهَا آيَةُ السَّيْفِ : ﴿ أَدْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤) .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ (المعارج: ٥) ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥) ، ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّى تَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ (يونس: ١٠٩) ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

بِاللَّهِ ﴿ (النحل: ١٢٧) ، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم: ٦٠) ، ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (الطور: ٤٨) ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (طه: ١٣٠) ، فهذه الآيات وأمثالها التي أمرت بالصبر عامة ، أو الصبر لحكم الله ، أو على المشركين ، نسختها جميعاً آية السيف .

وألحقوا بها الآيات التي تأمر بالإعراض عن المشركين ، والتي تأمر بالعفو والصفح ، أو تأمر بالدفع بالتي هي أحسن ، أو تأمر بجidal الكفار بالتي هي أحسن ، وكذلك الآيات التي تأمر بحسن معاملة الكفار ، وغيرها من الآيات ، نسختها آية السيف . وهذه مبالغة لا نقبلها . ونحن نؤمن بأن كتاب الله باق معمول به ، لا يجوز نسخه إلا بيقين ، ولا يقين .

إهلاك أهل القرى في أوقات معلومة محدّدة :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

المقصود بالقرية : أهل القرية . تقول : اسئل القرية . أي : أهل القرية ، هذا مجازٌ معروف ، نقول : حكمت المحكمة . والمحكمة هي المكان الذي يجتمع فيه القضاة ، فتقول : حكمت المحكمة . أي : قضاتها . ويقول الله تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم يعقوب : ﴿ وَسئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف: ٨٢) ، ليس المقصود : اسئل المباني ؛ بل المقصود : اسئل أهل القرية .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، كلُّ ما قدّر الله عزَّ وجلَّ في هذه الحياة من أحداث ووقائع تنزل بالأفراد ، أو تنزل بالمجتمعات ، فهو مُقدَّرٌ عند الله ، مكتوبٌ في كتاب ، كلُّ شيء معلوم وله أجلٌ مُحدَّد ، ووقت مدوّن : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨) ، ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٨) ، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (الحديد: ٢٢) ، فكلُّ قومٍ استحقوا الهلاك لكفرهم وعنادهم وتعدّيهم على

رُسل الله والمؤمنين بهم، هؤلاء سيأتيهم ما قَدَّرَ اللهُ لهم في موعده المُحدَّد المعلوم، وهذا معنى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ ، أي: أجلٌ مُحدَّد مكتوبٌ مسطور ، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٥٣، ٥٢)، فهو مُسَطَّرٌ عند الله .

الموعد المُحدَّد لإهلاك الأمم الظالمة :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴾ ^(١)

كلُّ أُمَّةٍ لها أجلٌ مُعَيَّنٌ ، إذا كانت أُمَّةٌ صالحَةٌ فإنَّ الله سبحانه وتعالى يمدُّ لها أسباب الخير والفلاح ، ويُطعمها من فوقها ومن تحت أرجلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (المائدة: ٦٦) ، هذا مكتوبٌ أيضاً عند الله ، الأُمَّة التي قَدَّرَ اللهُ لها أن تُؤمن وتعملَ صالحاً يؤتيها الطَّيبات ، ويُبارك في حياتها ، والأُمَّة التي قَدَّرَ اللهُ أن يُهلكها ، وهو لا يهلك الأمم اعتباراً ولا عبثاً ولا ظلماً ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود: ١١٧) ، إذا كان أهلها مُصلحين لا يمكن أن يُهلكها اللهُ ، إنَّما يُهلك اللهُ مَنْ ظَلَمَ وأفسد ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف: ٥٩) ، يوجد موعدٌ مُحدَّد لإهلاك الظالمين ، ولذلك يقول هنا : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ (الحجر: ٥) ، الذي حدَّد اللهُ فيه هلاكها ، إذا كان اللهُ قد حدَّدَ هلاكها في سنة معيَّنة ، وفي شهر مُحدَّد ، وفي يوم معلوم ، سيأتي الهلاك في اللحظة المُقدَّرة .

(١) الأُمَّة : الجماعة يؤلَّف بينها دينٌ أو عقيدة . أو أيِّ فكرة مما يجمع الناس .

استعجال الكفار العذاب ومباغتهم به :

والكفار يستعجلون نزول العذاب : ﴿ وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۗ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (العنكبوت: ٥٣) ، فهناك أجل مُسمى معين حدده ربنا ، لولا هذا الأجل لجاهم العذاب ، ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٣) .

من سنن الله عز وجل : أن يباغتهم العذاب من حيث لا يتوقعون ، يأتيهم بيانا وهم نائمون ، يأتيهم ضحى وهم يلعبون ، هكذا ، ولكن يأتيهم وهم في غفلة يباغتهم ويفاجئهم .

سنة الله في تقدير الآجال للأمم والأفراد :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴾ ، لا تقدم ولا تؤخر ، إنما يأتي عذاب الله وعقابه في الأجل المسمى ، في الموعد المحدد كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٤) ، لا استئخار ولا استقدام ، بل هو في اللحظة المحددة ، وهذا ينطبق على الأمم ، وينطبق على الأفراد : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح: ٤) ، ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١) .

استهزاء المعاندين المكذبين برسول الله :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

يتحدث الله عن هؤلاء المشركين المعاندين المكذبين ، وكيف يستهزئون برسول الله ﷺ ويقولون في لغة متهمكة : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، فهم لا يصدقون أن هناك ذكرا منزلا عليه من السماء ، فقولهم : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ ، تفيد أنه يوجد شيء نازل من أعلى إلى أسفل ، أي : من عند

الله جاءت به الملائكة إلى محمد ، هم يسخرون ويقولون : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ ، كما تزعم وتدعي : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ^(١) : فاقد للعقل والتفكير السوي ، حيث تدعو بدعوة تخالف ما عليه الناس ، تُسَفِّهَ دينَ الآباء والأجداد ، تدعو إلى ترك الآلهة التي يظنون أنها تنفع وتضر ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولكنهم يزعمون هذا . يا من يقف ضدَّ العقائد السائدة ، ويقاوم وحده المجتمع كله ، وينادي بدعوة التوحيد التي ترفضها الكافة والأغلبية ، يقولون :

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخْتِلَاقٌ ﴾ (ص:٧) . ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥) ، ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (ص:٨) ، فهم يستغربون أن يدعوا إلى دعوة التوحيد ، هذا شيء عجاب .

ولماذا هو وحده الذي نُزِّلَ عليه الذكر من بيننا ، وهناك أناس عظاماء : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) ، مثل الوليد ابن المغيرة في مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف!! .

وَصَفُ الْأُمَمِ الْمَكْتُوبَةِ رُسُلَ اللَّهِ بِالْجَنُونَ :

هكذا كان موقف هؤلاء السفهاء : ﴿ وَقَالُوا يَتَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، ووصفُ رُسُلِ اللَّهِ بِالْجَنُونَ متواترٌ عن الأمم المختلفة ، ما أكثر ما وُصِفَ المرسلون بأنهم مجانين . وكلُّ إنسان صاحب دعوة يؤمن بها ، ويدعو إليها ، وهي تخالف أعراف الناس ، وخصوصاً إذا خالفت أعراف أكابر القوم ، والعليّة من الناس - كما يُسمونهم - يطلقون عليه هذا الوصف : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ؛ لأنه يُضَحِّي وَيُغَامِرُ بِنَفْسِهِ وَبِحَيَاتِهِ وَيَقِفُ ضِدَّ التَّيَّارِ ، يعني : يسبح ضد التيار ، فيقولون : هذا مجنون .

(١) أكد كبراء مشركي مكة استهزاءهم بـ (إن) ، والجملة الاسمية ، واللام المزحلقة .

سيدنا نوح عليه السلام قالوا فيه : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرِّبُوهَا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٢٥) ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (القمر: ٩) ، هكذا وصف الأنبياء ، وكما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات: ٥٢) .

وسيدنا موسى عليه السلام قالوا فيه : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات: ٣٨، ٣٩) .

هكذا الأمم قبل العرب ، وقبل قريش ، قالوا مثل هذا ، كما قالوا : في محمد إنه ساحر أو مجنون . وقالوا فيمن سبقه من الرسل : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴾ (الذاريات: ٥٣) . يعني : هل وصى بعضهم بعضاً بأن يقولوا هذا؟! فكلُّ أمة تقول هذه المقولة ، كأنَّ هناك وصية من الأمة التي قبلها ، والحقيقة أنه ليس هناك وصية ، إنما يقول الله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴾ ، أي : اشرركوا في الطغيان ، فاشتركوها في النتيجة ، تشابهت قلوبهم كما قال الله تعالى : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (البقرة: ١١٨) ، فتشابهت أقوالهم ؛ لأنَّ المصدر واحد ، وهو الطغيان على الحقِّ وتجاوز الحدِّ .

لقد افتروا على رسول الله ﷺ قالوا : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر: ٦) ، وقالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس: ٢) ، وقالوا : ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ (الطور: ٣٠) ، وقالوا : ﴿ أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ (الأنبياء: ٥) ، وقالوا : ﴿ أُسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تَمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان: ٥) . وقالوا ما قالوا ، وكلُّها أكاذيب وأباطيل لا تقوم على حجة ، ولا تُبنى على منطق .

قَلْبُ الْحَقَائِقِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ :

﴿ وَقَالُوا يَتَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، انظروا كيف يكون محمد عليه الصلاة والسلام مجنوناً ، وهؤلاء المشركون الذين يستندون للأصنام ،

الذين ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يعبدونها ، ويسألونها أن تجلب لهم الخير ، أو تدفع عنهم الضر ، أهؤلاء عقلاء ومحمد مجنون؟! انظروا كيف تقلب الحقائق ، المجانين يدعون على أعدل الناس ، وأذكى الناس ، وأفضل الناس : أنه مجنون ، هذا هو العَجَب .

الله تعالى يقول : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١٠﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿١١﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (القلم: ١-٤) ، أنت صاحب الخلق العظيم ، كيف يكون صاحب الخلق العظيم مجنوناً ؟! المجنون لا يتصرف تصرفاً مفهوماً ، لأن حياته خلط وخبط ، يعمل الشيء الآن ، ويهدمه بعد قليل ، ويقول الآن شيئاً ، ويقول شيئاً ينقضه بعد ذلك ، فحياته متناقضة ، وأقواله متناقضة ، وهذه الأشياء غير مفهومة ، فكيف يكون محمداً مجنوناً ، لا يمكن أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنوناً : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿١٥﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

طلب المشركين إتيان الملائكة :

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ لَوْ مَا ﴾ ، هنا معناه التحضيض مثل : (لولا) و(هلاً) ، أي : هلاً تأتينا بالملائكة وتحضرهم عياناً ، إن كنت من الصادقين في دعواك بأن الملائكة تنزل عليك ، هات الملائكة ، اجعلنا نراها تأتي وتشهد لك . وهكذا رأينا المكذبين للرسول في الرسالات المختلفة يلجئون إلى هذه الدعوى ، نزول الملائكة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٢١، ٢٢) ، الملائكة إذا نزلت ستنزل بعذاب الله .

حتى فرعون قال عن سيدنا موسى : ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٣) ، ومشركو مكة حين طلبوا من النبيِّ
آيات تعجيز قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٦﴾
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ تُسْقِطَ
السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٨﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
نَقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣) إلخ .

الردُّ على اقتراحات كفار قريش :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(١)

فهؤلاء الذين يطلبون نزول الملائكة ، ويقولون : ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يردُّ الله تعالى عليهم : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ،
ما ننزل الملائكة حين ننزلها إلا تنزيلاً مقترناً بالحق ، وعلى الوجه الذي اقتضته
الحكمة ، وهي تنزل إما بالوحي وإما بالعذاب : إما بالوحي للرسول ، أو بالعذاب
على مكذبيهم ، حين يأتي الوقت المعلوم : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ
مَّعْلُومٌ ﴾ (الحجر: ٤) ، تأتي الملائكة حين نزولها بالحق ويكون فيه هلاكهم ، ويكون
فيه نقمة الله تعالى عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٢) .

(١) قرأ شعبة : (ما تُنزل الملائكة) . وقرأها حفص ، وحزمة ، والكسائي ، وخلف : (تُنزل
الملائكة) ، وقرأها البزبي : (ما تُنزل الملائكة) بتشديد التاء مع المد المشيع . وقرأها باقي
القراء العشرة : (ما تُنزل الملائكة) وبين هذه القراءات تكاملٌ ، والمؤدَّى واحد .

انتهاء الإمهال عند نزول الملائكة :

﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾

هم يستعجلون نزول الملائكة ، وستأتي الملائكة عند نزولها بالحق ، ومن الحق : ما قدر الله لهم من عذاب ومن هلاك . وهم يستعجلون مصيرهم ، يستعجلون هلاكهم ، إذا نزلت الملائكة فلا إنذار ولا إهمال ، ﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ، في هذه الحالة انتهى الإمهال ، انتهت المهلة التي أُعطيَتْ لهم ، انتهت الفرصة التي أُتيحت لهم ، إذا نزلت الملائكة كان هلاكهم ودمارهم فعلاً يستعجل هؤلاء ! ﴿ مَا نُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾^(١) .

الذكر هو القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

الذكر هو القرآن ، للأسف وجدنا بعض المغرورين من الدُخلاء على القرآن وعلى علوم القرآن ، ممن يدعون أنهم يقرءون القرآن قراءة معاصرة ، قراءة جديدة ، ويحسبون أن الطبري وابن الجوزي والزمخشري والرازي وابن كثير والقرطبي وابن تيمية وابن القيم وكل مفسري المسلمين - تفسيراً بالرواية وتفسيراً بالدراية - لم يفهموا القرآن ، هم الذين يفهمونه وحدهم ، ويقولون : أنا أبدأ من الصفر ، لا تقل لي : حديث مرفوع ، ولا حديث موقوف . ولا تقل لي تفسير ابن عباس . ولا تقل لي : تفسير ابن مسعود ولا غيره . أنا أبدأ من جديد . ويأتوننا

(١) قال العلامة ابن جزى الغرناطي في (التسهيل) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ :
إذاً : حرف جواب وجزاء ، والمعنى : لو أنزل الملائكة لم يؤخَّر عذاب هؤلاء الكفار ،
الذين اقترحوا نزولهم ، لأن من عادة الله أن من اقترح آية فرأها ولم يؤمن ، أنه يُعجل له
العذاب ، وقد علم الله أن هؤلاء القوم يؤمن كثير منهم ، ويؤمن أعقابهم ، فلم يفعل بهم
ذلك .

بالعجب ، ومن العَجَب الذي جاءوا به أنهم قالوا : الذكر شيء ، والقرآن شيء ،
والفرقان شيء . . وهكذا .

الذكر هو القرآن : ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، وهل
نُزِّلَ عليه شيء غير القرآن؟! حتى المشركون قالوا هذا : ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ
بَيْنِنَا ﴾ (ص: ٨) ، والله سبحانه قال هذا : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤) .

لماذا سُمِّي القرآن ذكراً ؟

الذكر هو القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ سُمِّي ذكراً لأنه يُذَكَّرُ بالله وبعبادته ،
ويُذَكَّرُ بتشريعه وآدابه ، ويُذَكَّرُ بالأخلاق وأصول الفضائل ، ويُذَكَّرُ بالآخرة ،
ويُذَكَّرُ بكلِّ ما هو خير ، إنه هو التذكير : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ سَخِفَ وَعِيدِ ﴾
(ق: ٤٥) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ (الأعلى: ٩) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (القمر: ١٧) ، هو مُذَكَّرٌ ، ولذلك سُمِّي ذكراً .

كما سُمِّي فرقاناً ؛ لأنه يفرِّق بين الحقِّ والباطل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ
عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١) .

الردُّ على أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم :

وهؤلاء يزعمون أنَّ الذكر شيء ، وأنَّ القرآن شيء ، وأنَّ الكتاب شيء ، والذكر
شيء ، والقرآن يكذبهم ويرد عليهم : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾
(الحجر: ١) ، ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (النمل: ١) .

ونقرأ في سورة الشورى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَرِيبٌ ﴾ (فصلت: ٤١) ، الذكر هو الكتاب العزيز ليس شيئاً آخر ثم
يقول : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾
(فصلت: ٤٤) ، فهو القرآن ، وهو الذكر ، وهو الكتابُ في سياق واحد ، ولكنَّ

هؤلاء جعلوا القرآن عضيّن - مفرّقاً - يقرؤون القرآن منفصلاً بعضه عن بعض ، لا يستحضرون ما ورد في الموضوع من آيات ، ولذلك يقعون في هذه الهاوية من سوء الفهم ومن ضلال الفكر ، والعياذ بالله .

لم يتأهلوا لتفسير القرآن ، لم يعرفوا القرآن حق المعرفة ، لم يعرفوا السنة النبويّة ، وهي بيان القرآن ، لم يعرفوا كيف يفهم القرآن ، لم يفهموا أصول الفقه ، وما وضعه العلماء من قواعد لحسن الفهم ، كيف يُحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وكيف يفسّر الواضح غير الواضح ، والمفصل المُجمل .. إلخ ، لم يتأهلوا للقرآن ، ولكن هذه دعواهم .

الفرق بين نزّلنا وأنزلنا :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ ، أي : القرآن ، كلمة ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ - كما قلنا - من فوق ، أحياناً ﴿ أنزلنا ﴾ ، وأحياناً ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ، إذا روعي إنزال القرآن مرةً واحدة قال : ﴿ أنزلنا ﴾ ، وإذا روعي أنه نُزِّلَ في ثلاث وعشرين سنة نجومًا مفرقةً على حسب الحوادث ، يقال : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ بصيغة المُعْظَمِ نفسه ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ لم يُنزله أحدٌ غيرنا ، ولا يُمكن لأحدٍ أن ينزله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢).

المؤكدات على حفظ القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، نحن المتكفلون بحفظه ، فلا يقدر أحد على الزيادة فيه ، ولا النقصان منه ، ولا تبديله ، بخلاف غيره من الكتب ، التي استحفظها الله عباده فقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ مِّمَّكَمُهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّابُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(المائدة: ٤٤).

أكد الله حفظ القرآن بهذه الصيغة ، وعلماء اللغة يقولون : الجملة الإسمية أوكد من الجملة الفعلية ، فإذا أكدت الجملة الإسمية بـ(إن) كان هذا زيادة في التأكيد ، فنحن نقول : إن : حرف توكيد ونصب . تقول : محمدٌ حاضر . وتقول : إنَّ محمدًا حاضر . فهذا توكيد ، فإذا أدخلت اللام في الخبر كان هذا زيادة توكيد على توكيد ، تقول : إنَّ محمدًا لحاضر . وهنا يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

فرق بين أن يقول : (ونحفظه) . وبين أن يقول : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . ولم يقل سبحانه : نحن له حافظون . لا إنما قال : ﴿ إِنَّا ﴾ ، ولم يقل : إنا له حافظون . لا ، إنما قال : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وهذا تأكيد في حفظ هذا الكتاب العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) .

تميز القرآن الكريم بالحفظ دون غيره من الكتب السماوية :

ولذلك لا يوجد كتاب من الكتب الدينية محفوظاً كما حفظ القرآن الكريم ، وقد هياً الله سبحانه لحفظ القرآن ، أن يُحَفَظَ في الصدور والسطور ، فهذا القرآن محفوظ في الصدور ، متلو باللسنة ، مكتوب في المصاحف ، يحفظه الآلاف ، بل عشرات الآلاف ، بل مئات الألوف ، بل الملايين^(١) يحفظون القرآن الكريم كله ، حتى الصبيان يحفظون هذا القرآن . هات لي الكتاب المقدس ، هل يحفظه الكرادلة والأساقفة والقسس ، هل يحفظون الكتاب المقدس؟ لا يوجد من يحفظ الكتاب المقدس ، ولا نصفه ، ولا ربه ، ولا خمسه ولا عشره ، إنما يحفظون أجزاء منه .

(١) قال الإخوة في ليبيا : إنهم عندهم مليون حافظ بأسمائهم وملفاتهم . وقد بدأوا في المليون الثاني .

أسباب حفظ القرآن من التغيير والتبديل :

القرآن يحفظه الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، وقد هيا الله تعالى له أسباب الحفظ .

بعض الناس يقول : ما دام الكتاب محفوظاً ، فلماذا كتبه الصحابة؟ ولماذا جمعه سيدنا عثمان؟! وهذا من أسباب الحفظ . يحفظه أي : يهيئ له من الأسباب والوسائل ما يجعل هذا القرآن محفوظاً ، لا يعتره تغيير ولا تبديل ، ولا حذف ولا نقص . نحن نقرأ القرآن كما كان يقرأه النبي ﷺ وأصحابه ، يَغْنَهُ ومَدَّهُ ، وحركاته وسكناته . ووضع في هذا : علم التجويد ، وعلم مَخَارِج الحروف ، وعلم القراءات . وهذه العلوم لِيُحْفَظَ هذا القرآن ، كما أنزل مُشَاهَةً ، ثم جمع على عهد أبي بكر ، ثم كُتِبَ في عهد سيدنا عثمان (مصحف الإمام) ، ووَزَّعَ على أمصار المسلمين وأقطارهم ، لِيُقرأ على حرف واحد ، حتى لا يختلف فيه المسلمون .

حتى الآن لا يَجْرُؤُ أحدٌ أن يُغَيِّرَ رسم القرآن ، تغيَّرت قواعد الرسم وقواعد الإملاء ، ولكن بقي القرآن كما هو بالرسم العثماني : ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ﴾ (آل عمران: ١٣٠) ، ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ، مكتوبة في القرآن الرِّبَا (راء باء واو ألف) ، وفي الرسم العادي الربا (راء باء ألف) ، هذا مقتضى القواعد ، وكذلك كُتِبَ في القرآن بالرسم العثماني ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (البقرة: ٢٣٨) ، (لام واو وتاء مربوطة) بقي القرآن كما هو ، هذا كتاب محفوظ^(١) .

انظر الآن إلى المسابقات التي تُرصد للقرآن الكريم في بلاد الدنيا ، شيء هائل ، كيف سحرَّ الله الناس ، وجنَّد هؤلاء في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ليكافئوا حفاظ

(١) تنظر فتوى فضيلة الشيخ حفظه الله حول الرسم العثماني من فتاوى معاصرة (١٣/٢) .
طبعة المكتب الإسلامي ، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

القرآن بمكافئات سخية ، وكيف وجدت مراكز تحفيظ القرآن في مساجد الدنيا كلها ، كلُّ هذا تأكيدٌ لوعدهِ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُدَحَافِظُونَ ﴾ .

إسلام أحد اليهود بسبب حفظ القرآن من التغيير والزيادة والنقص :

ذكر الإمام القرطبي : (كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب ، حسن الوجه ، طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة .

قال : فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون ، فقال له : إسرائيلي؟ قال : نعم .

قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع . ووعدته . فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف .

قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام . فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون ، وقال : ألسنتَ صاحبنا بالأمس؟ قال له : بلى .

قال : فما كان سبب إسلامك؟ قال : انصرفت من حضرتك ، فأحببتُ أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت تراني حسن الخط ، وعمدتُ إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ ، فزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتها الكنيسة فاشتريتُ مني ، وعمدتُ إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتها البيعة فاشتريتُ مني ، وعمدتُ إلى القرآن فعملتُ ثلاث نسخ وزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمتُ أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي .

قال يحيى بن أكثم : فحججتُ تلك السنة ، فلقيتُ سفيان بن عيينة فذكرتُ له الخبر ، فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ .

قال قلتُ : في أي موضع؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل :

﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (المائدة: ٤٤) ، فجعل حفظه إليهم فضع ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، فحفظه الله عز وجل علينا ، فلم يضع ^(١) .

يعني طلب منهم أن يحفظوا كتاب الله ، فوكل الله حفظ التوراة إلى الأحبار والرهبان ، فلم يقوموا بحق الحفظ ، وأضاعوا كتابه فغير وبدل ، أما القرآن فلم يكله الله إلى أحد ، ولم يستحفظه أحداً ، ولكن تولى حفظه بنفسه ، ولذلك لا يستطيع أحد أن يغير فيه أو يبدل . ولذلك لو أن شيخاً كبيراً مهيباً من كبار العلماء أو كبار القراء غير أو بدل أمام صبيان الكتاب لهاج عليه الصبيان .

كما لاحظت في صباي أن أحد الصبيان قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ قرأها : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ - ﷺ - إِلَّا رَسُولٌ ﴾ ، كل الصبيان هاجوا عليه ، لا يوجد ﷺ في القرآن ، لا يوجد إلا محمد ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) .

الربط بين طلب المشركين نزول الملائكة ونزول الكتاب على الرسول :

﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴾

كان المشركون يطلبون من النبي ﷺ على سبيل التحدي : أن تنزل الملائكة من السماء لتصدقه فيما جاء به ، ورد الله عليهم بأن الملائكة لا تنزل أكثر ما تنزل إلا بالعذاب ، والله تعالى لا يريد أن يستأصلهم كما استأصل الذين من قبلهم ، عاداً وشمود .

﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴾ (الحجر: ٨) ، يقول الله تعالى : نحن نزلنا عليكم ما ينفعكم ويهديكم ، ويأخذ بأيديكم إلى السعادة في

(١) تفسير القرطبي (١٢/١٨٠، ١٨١) .

الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، بدل تنزيل الملائكة بالعذاب نزلنا عليكم القرآن ، الذي يأتيكم بالهدى والنور .

التَّسْرِيَةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴾^(١)

يخاطب الله سبحانه النَّبِيَّ ﷺ ، يُعْزِيهِ وَيُسَلِّهِ عَمَّا أَصَابَهُ مِنْ كِبْرَاءِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ ، مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالسَّخْرِيَةِ ، حِينَ قَالُوا : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، إِذْ كَبُرَ فِي نَفْسِهِمْ أَنْ يَكُونَ كِتَابُهُ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ .

أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُسَرِّيَ عَنِ رَسُولِهِ ، بِأَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ الَّذِي ابْتُلِيَ بِاسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَدِّبِينَ ، كُلُّ الرُّسُلِ فِي أَقْوَامِهِمْ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُ ، إِذَا كَانَ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ قِيلَ لَهُ : مَجْنُونٌ ، وَسَاحِرٌ ، وَكَاهِنٌ ، وَمُفْتَرٌ . وَقِيلَ لَهُ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . اكْتَبْتَهَا .. إِلَى آخِرِهِ .

وَقَدْ حَكَى الْقُرْآنُ اسْتِهْزَاءَهُمُ بِالنَّبِيِّ فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ ءِالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٦) ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (الفرقان: ٤١) ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْفَرْعَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزحرف: ٣١) ، لِمَاذَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَى أَحَدِ الْعِظْمَاءِ مِنْ قَرِيْشٍ مِّثْلَ :

(١) المفعول محذوف دلت عليه كلمة (أرسلنا) أي : أرسلنا رسلاً من قبلك ، والشَّيْعُ : جمع شيعه ، وهي الطائفة التي تتشيع لمذهب أو رجل . والأوَّلُونَ : الماضون من الأمم . والمراد بِشِيْعِ الْأَوَّلِينَ : جماعات الكفر والشرك الذين أرسل الله لهم رسلاً من أهل القرون السالفة ، فاستهزؤوا بهم .

الوليد بن المغيرة ، أو من عظماء الطائف مثل : عروة بن مسعود الثقفي ، لِمَ ينزل على هذا الفقير اليتيم؟

استهزاء الأمم المكذبة برسول الله :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (الحجر: ١١)

لَسْتَ يَا مُحَمَّدَ وَحَدَّكَ الَّذِي اسْتَهْزَأَ بِهِ قَوْمُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (النحل: ٣٦) ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٤) .

هؤلاء الرسل وهؤلاء النذُر لقوا من قومهم الهُزاء والسخرية الكثير ، حتى حاقَ بهم ما حاق من عذاب الله عزَّ وجلَّ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠) ، استهزؤوا برسلمهم من أجل ما عندهم من مال ، أو من أجل ما عندهم من جاه ، أو من أجل ما عندهم من علم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (غافر: ٨٣) ، استهزؤوا برسلمهم فقالوا : ﴿ أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴾ (القمر: ٢٤) .

وقالوا : ﴿ وَمَا تَرْكُكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴾

(هود: ٢٧) .

وقالوا ﴿ أَنْتُمْ مِّن لَّكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١) ، أي : الفقراء والمساكين ، لم يتبعك الملاء الأشراف والكبراء ، لأنَّ الكبراء دائماً يجدون أنَّ الرسالات ضدُّ مصالحهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا ﴾

لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ (الأنعام: ١٢٣) ،
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

(سيا: ٣٤).

المترفون الذين يعيشون في هذه الدنيا في الترف وبُحبوحة النعيم ، ويأكلون الأموال بالباطل ، ويجمعون الأموال ، ويننون القصور ، بلا حساب ، هم دائماً أعداء كل رسالة ، وخصوم كل دعوة إلى الإصلاح ، فهؤلاء كانوا دائماً ضد الأنبياء عليهم السلام ، واستهزؤوا بهم ، ملوك وجبابرة وقفوا ضد الرسل . كما قال فرعون :
﴿ يَنْقُومِ الْعِيسَىٰ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿ (الزخرف: ٥١-٥٣).

وهكذا كان المكذبون دائماً في الأمم : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الحجر: ١١).

كما قال الله عز وجل : ﴿ يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (يس: ٣٠).

انظروا إلى هذا التعبير : ﴿ يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، والرسول لم يأت إلا لخيرهم ، إلا لمصلحتهم ، إلا لهدايتهم ، إلا للأخذ بأيديهم إلى سعادة الآخرة والأولى ، ومع هذا كانوا به يستهزؤون .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ كَانُوا ﴾ تدلُّ على شأنهم ، كأن هذا سجية وطبيعة لهم ، فلم يستهزؤوا به مرةً أو مرتين ، ﴿ كَانُوا ﴾ ، مما يدلُّ على أن الاستهزاء طبعهم وسجيتهم ، وكلمة ﴿ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، فعل المضارع يدلُّ على التكرار والتجدد ، فهم دائمو الاستهزاء بكل رسول يأتيهم من عند الله .

مرجع الضمير في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ ﴾ :

﴿ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ ﴾ الضمير عائدٌ إلى أيِّ كلمة؟ هل هو عائدٌ إلى ﴿ الذِّكْرَ ﴾ ،
يعني كذلك نَسَلُكَ القرآنَ في قلوب المجرمين ، يسمعون ألفاظه وحروفه ، ولكنه
لا يدخل في قلوبهم .

وكلمة (سَلَك) يسَلُك سَلَكًا السَّلَك : أي : أدخل شيئاً في شيء آخر ، مثل :
إدخال الخيط في المخيط (الإبرة) ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ ﴾
(المدثر: ٤٢) أي : ما أدخلكم في سفر؟ وهنا : (نسلكه) ندخله في قلوب المجرمين ؛
لا دخول النور لمن يستتير به ، ولا دخول الهدى لمن يهتدي به ، ولكن دخول لمن
يُعرض عن الحق ، وقد دخل إلى قلبه ، فأعرض عنه ، ونأى بجانبه ، وهكذا كان
هؤلاء يسمعون القرآن ، ولكن لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم وضمائرهم ، قال
تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾
(فصلت: ٢٦) شوشوا عليه حتى لا يسمعه الصبيان والنساء والعبيد فيتأثرون به ،
هكذا كانوا لا يريدون أن يسمعه أحد سماع المهتدي ، سماع من يبحث عن الحق ،
سماع من يريد أن يقتنع بالأمر إذا كان فيه دلائل بيّنة ، وحجة ظاهرة .

وبعضُ المُفسِّرين قالوا : ﴿ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ ﴾ ، أي : نَسَلُكَ الاستهزاء والتكذيب
والكفرَ في قلوب المجرمين ؛ وهذا محتمل أيضاً . ولم يقل : (في قلوب الكافرين)
ولكن قال : ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ لِيُسَجَّلَ عليهم هذه الصفة : صفة الإجمام ، أن
من يقف هذا الموقف : مَنْ يرى أمامه الهدى ولا يهتدي ، وَمَنْ يرى أمامه الضوء
ولا يستضيء ، ومن يرى أمامه الحقَّ ، ولا يؤمن به ، ويجحده ، يقترف جريمة
كبرى .

سنة الله في الأولين :

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾^ط (١)

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ ﴾ أي : بالذكر الذي أنزل على النبي ، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هم على شاكلة مَنْ كان قبلهم من الأمم ، الذين أرسلت إليهم الرسل فكذبوهم : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥) ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٢٣) ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٤١) ، كذبوا نوحًا ، وكذبوا هودًا ، وكذبوا صالحًا ، وكذبوا شعيبًا ، وكذبوا لوطًا ، إلى آخر الأنبياء ، هؤلاء المكذبون ، هذه سنتهم ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

أو مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ، لأنهم إذا وقفوا هذا الموقف الذي يعاند الحق ، ويستهزئ به ، ويكفر به ، ويصد عنه ، فإن الله ينزل بهم عقوبته .

هذه أيضًا سُنَّةٌ من سنن الله كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) . كيف دمر الله عليهم؟

هكذا رأينا تدمير الله لهؤلاء الأقوام ، أَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ، ونجى الرسل ومن معهم من المؤمنين ، كما نجى سيدنا نوحًا عليه السلام في السفينة : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ (الشعراء: ١١٩، ١٢٠) ونجى هودًا ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٢) ، ونجى صالحًا ، ونجى شعيبًا ، ونجى المؤمنين معه .

(١) أي : لا يؤمنون بالذكر الذي أنزل إليهم ، والرسول الذي أرسل إليهم ، وقد خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ : تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، ومضت سنته سبحانه في تعذيبهم وإهلاكهم ، وسنته في نصر رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم . وفي هذا تسلية وطمأنة ووعد بالنصر والتأييد للرسول ﷺ وللذين آمنوا به واتبعوه .

عِنَادَ كَفَّارِ قَرِيْشٍ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَإِنْكَارِهِمْ كُلَّ آيَةٍ :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥).

يُحَدِّثُنَا الْقُرْآنُ عَنْ عِنَادِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ كَفَّارِ قَرِيْشٍ ، عَنْ مُكَابَرَتِهِمْ الْغَلِيظَةَ ، يَنْكُرُونَ الشَّمْسَ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ ، بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا نَزُولَ الْمَلَائِكَةِ لَكِي يُؤْمِنُوا ، وَلَوْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا آمَنُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلٰكِن أَكْثَرُهُمْ تٰجِهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١١١) .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ ، أَي : هَيَّاْنَا لَهُمْ سَبِيلًا ، وَمَكْنَاهُمْ مِنَ الصُّعُودِ فِيهِ ، ﴿ فَظَلُّوا ﴾ اسْتَمَرُّوا فِي زَمَنِ مَدِيدٍ ، ﴿ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أَي : يَصْعَدُونَ فِي هَذَا الْبَابِ الْمَفْتُوحِ إِلَى السَّمَاءِ .

وَالْعُرُوجُ : الْارْتِفَاعُ وَالصُّعُودُ ، وَمِنْهُ الْمِعْرَاجُ النَّبَوِيُّ ، وَالْمِرَادُ : أَنَّهُمْ يَعْرُجُونَ فِي هَذَا الْبَابِ الْمَفْتُوحِ إِلَى السَّمَاءِ .

وَكَلِمَةُ ﴿ فَظَلُّوا ﴾ ، أَي : بِالنَّهَارِ ، لِأَنَّ ظِلَّ الْعَمَلِ فِي النَّهَارِ ، وَبَاتَ لِلْعَمَلِ فِي اللَّيْلِ ، ﴿ فَظَلُّوا ﴾ أَي : ضَحَى النَّهَارَ ، ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ، أَي : يَصْعَدُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَالْفَضَاءِ يَرَوْنَ مَا فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ ، تَحْقِيقًا لَصَدَقَ الرَّسَالَةُ .

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ^(١) ، رُغْمَ هَذِهِ الْآيَةِ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ ، لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا إِلَى السَّمَاءِ عَرَجُوا فِيهِ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى السَّمَاءِ ، لَقَالُوا : إِنَّمَا ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا ﴾ ، أَي : أَبْصَارُنَا سُدَّتْ . تَقُولُ : سَكَّرَ

(١) قرأ ابن كثير : (سُكِّرَتْ) بتخفيف الكاف ، أي : حُبِسَتْ وَمُنَعَتْ النَّظْرُ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ : بِكسْرِ الكاف مع التشديد أي : سُدَّتْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا مِنَ السُّكْرِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : أُجْبِرَتْ أَبْصَارُنَا فَرَأَيْنَا الْأَمْرَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، أَوْ مِنَ السُّكْرِ وَهُوَ السُّدُّ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : مَنَعَتْ أَبْصَارُنَا مِنَ النَّظْرِ بِسَبَبِ السُّحْرِ .

الباب أي : أغلقه ، أو سكرت : أصبحنا في حالة السكران ، أخذت أبصارنا أو غشي علينا ، أو منعت . وكلُّ هذه معاني متقاربة .

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ ، أي : نحن لم نرَ الأشياءَ رؤيةً حقيقيَّةً ، ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ ، أي : أنَّ محمدًا سحرنا ، وجعلنا نظنُّ أننا عرجنا إلى السماء وما عرجنا ، لا يمكن أن يؤمنوا كما قال تعالى أيضًا : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧) ، كانوا يطلبون نزول كتاب من السماء : ﴿ أَوْ تَرَقَّى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ (الإسراء: ٩٣) أي : لو نزلنا عليك كتابًا من السماء ، ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، هو جاء من السماء ، ولمسوه بأيديهم ، ولو نظروا بأعينهم لردوا ذلك ، ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧) ، فالعناد هو العناد ، والمكابرة هي المكابرة ، فليس عندهم علة ولا عذر في الحقيقة سوى العناد الباطل ، الذي يتمسك بالباطل ، ويرى الحقَّ أمامه واضحًا جليًّا كالشمس في ضحى النهار ، ومع هذا لا يؤمنون .